الناقد والأديب المغربي محمد برادة :

النسيان يسمح للغة بالتحرر من استعمالاتها المألوفة

العلاقة الجدلية بين الثقافة والسياسة متوترة ولكنها خصبة

□ المتتبع لأعمال د . محمد برادة يصعب عليه أن يضعه في خانة معينة، ذلك لأن له مجموعة أعمال تراوح بين البحث والنقد والكتابة الروائية والترجمة، أيضاً ففي مجال الترجمات النقدية نقرأ له : «الدرجة الصفر للكتابة» لرولان بارت، وفي ترجمة الإبداع : «الربيع وفصول أخرى» لـ «لوكليزيو»، هو - أيضاً - يرصد الحركة الأدبية في العالم الغربي عامة وفي الوطن العربي خاصة، وإلى هذا فهو يمتلك مجموعة أعمال أدبية راوحت بين القصة القصيرة والرواية، وقد اشتغل على لغات متعددة، راوحت بين الفهم السياسي المتقدم الذي يترك آثاره متسائلة فينا، وبين عنناصر فنية أهمها التشكيل ونقل لعبة الضوء والظل إلى عالم الكتابة الروائية والقصصية، متأثراً في ذلك بعلاقته مع الفن البصري التصويري من جهة، وبالطروحات الفنية الأدبية في الجلسات الحميمية مع مجموعة من أصدقائه منهم : الشاعر عبداللطيف اللعبي والفنان الشاعر محمد القاسمي، إنهم عندما يجتمعون يتم التجاسر بين قلقين، قلق الأدباء وقلق الفن أو بين شغبين، شغب أدبي وشغب فني، فيذكرونك بالحركة الشعرية الفنية التي طبعت قرناً بأكمله وأعني الحركة السوريالية.

حاورته/زهرة زيراوي

الشروط الموضوعية في مجتمعاتنا العربية لا تسمح بوجود المبدع المستقل

لغة الأم والذاكرة المكتوبة

□ لقد اشتغلتم على تعدد أشكال الكتابة، فما الذي قررتم السير في دربه أولاً؟

- لا أظن أن أحداً يقرر، منذ البدء، أن يصبح شاعراً أو روائياً، فالكتابة مغامرة ملتبسة بطبيعتها وأبعد ما تكون عن المهنة (المضمونة) التي يمكن أن تكون مجالاً للاختيار الإداري المحض، عبر دروب متعرجة، ومتشابكة، تصل إلى الاقتناع بضرورة (اللجوء) إلى الكتابة، وغالباً ما نلجأ إلى الكتابة عندما نتبين أننا لا نستطيع أن نغير العالم - كما كان يقول جان جونيه - ثم كيف جاء الاستقرار في منعطف الرواية؟

في بداية الستينيات لم تكن توجد بالمغرب شروط تساعد على الكتابة أو على احتراف الأدب، خاصة لمن يريد أن يكتب باللغة العربية، كانت النصوص القليلة التي قرأتها وأنا في المدرسة الثانوية، هي لكتاب مغاربة درسوا وأقاموا فترة طويلة بمصر، أو لآخرين تأثروا بالنهضة الأدبية والفكرية في المشرق العربي واندمجوا في الحركة الوطنية المقاومة للحماية الفرنسية، كانت النصوص الأدبية المغربية المكتوبة بالعربية آنذاك امتداداً واستيحاءً للنضال من أجل الاستقلال ومن أجل بلورة ثقافية وطنية تنتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية، بعد عودتي من القاهرة سنة ١٩٦٠م، حيث أكملت دراستي الجامعية، كنت أحمل وزملاء آخرين قناعة الدعوة إلى تجديد الأدب المغربي المكتوب بالعربية والتبشير بالأدب الملتزم القادم على تغيير الواقع، كان سياق الفورة الحماسية المنبثقة عن تحقيق الاستقلال يجعل كل الآمال والآفاق مفتوحة أمامنا، لم نكن نكتب كثيراً، بل كنا نحاضر ونتجادل ونتحاور ونحتضن الآراء الجريئة في وجودية سارتر وحداثة مجلتي (الآداب) و(شعر) اللبنانيتين، كان هناك اعتقاد بأن الكلمة سلاح فعال وضروري لتنوير المجتمع.

الرواية هي المخرج

□ هل يمتلك الأدب أو الفن قدرة أو قوة ما على التغيير؟

- بعد عشرين سنة من العمل الثقافي والتدريس في كلية الآداب وبعد خيبة الأمل التي حملها الاستقلال وسياسة القمع أدركت أن أوهاماً كثيرة تختلط بنظرتي إلى قدرة الأدب على التغيير، وأدركت في الآن نفسه أن ما كتبت من مقالات وبحوث نقدية لا يقربني من معرفة ذاتي واستيعاب ما عشته لاهثاً متعجلاً منساقاً وراء الشعارات والتفاؤل المطلق، ومن ثم حاصرني شعور قوي بأن كتابة رواية هي المخرج من أزمتي والوسيلة لفهم ما عشته من مغامرات وأحداث وكل ما اختزنته الذاكرة، وعندما بدأت في مطلع الثمانينيات كتابة الرواية «لعبة النسيان» كانت قد تبلورت لديّ قناعة «اللجوء إلى حرية الكتابة» حتى أتمكن من المقاومة وأنتهك الحدود المصطنعة بين الواقع واللاواقع، بين الملموس والمحلوم به، وسرعان ما تحولت مغامرتي الروائية إلى لعبة تسعفني على استحضار التفاصيل ورسوم الشخوص والفضاءات والاستمتاع بالكلام ومستويات اللغة المتعددة.

مشروع التعداد داخل اللغة

□ في حديثكم عن الرواية أثرتم موضوع الذاكرة ولغة الأم والتعدد داخل اللغة، كيف ذلك؟

- وضفت عناصر من السيرة الذاتية في «لعبة النسيان» ولكنني لجأت - أيضاً - إلى التخييل لتحرير الكتابة من قيود الإفضاء بـ «حقيقة ما» وفي عودتي إلى استيحاء طفولتي بمدينة فاس خلال الأربعينيات فوجئت بلغة الأم، لغة الكلام والتواصل اليومي في أحياء وأزقة فاس القديمة تنبثق من أعماق الذاكرة واللاشعور، لتفرض نفسها على الحوار وعلى وصف بعض الفضاءات التي لا يمكن فصلها عن بعض الكلمات، ورغم أنني تعلمت في المدرسة الابتدائية باللغة الفصحى، إلاّ أن لغة الأم في الحقيقة هي تلك اللغة الدارجة التي لها وشائج قوية بالفصحى، إلاّ أنها تمتلك خصوصيتها وتعبيريتها من تلقائية الطفولة، وحضور الأم ونكهة التلفظ وأنثوية الصوت، وهذه التجربة من لغة الأم نبهتني إلى مشروعية التعدد داخل اللغة الواحدة، وإلى وظيفتها الفنية والدلالية في الكشف عن أبعاد الشخصية الروائية والتقاط ملامحها المميزة، في ظلال الطفولة، وانبثاق لغة الأم المكبوتة، انتقلت مغامرتي الروائية من محاولة استيعاب «الأزمة» والتحولات الاجتماعية والسياسية المتسارعة إلى النبش في الأعماق ومسرحة الذات والذاكرة، أدركت أن الرواية تولد ديمومة مختلفة عن ديمومة الزمن التعاقبي الذي تتوهم العيش داخله، تزول الفوارق بين ماض وحاضر ومستقبل لتخلق الرواية كثافة أخرى متماسكة وفاعلة في السر هي التي تقود الشخصية الروائية إلى أن تستعيد وعيها بقوة الزمن وهشاشة الكائن ومن ثم التحايل على لا معكوسية الزمان، ومحاولة استعادته بأشكال مختلفة، وفي «لعبة النسيان» لم أكن منجذباً إلى الماضي في حد ذاته بقدر ما كنت مشدوداً إلى صور الماضي بجمالها الطفولي وفضاءاتها الميثولوجية المتعالية على الزمن العادي، هكذا أمام تدهور زمني الحاضر وانسداد آفاقه كان زمن فاس المقترن بالطفولة يمنحني شعوراً بأن كل شيء «متصاعد» وممكن إدراكه، ومن ثم تكتسب فاس صفة الرحم، ويغدو حضور الأم في «لعبة النسيان» ذا رمزية أساسية وملتبسة، لأنه يجدد التدفق الحياتي ويهبنا القدرة ع لى الاندهاش والتصالح مع الذات.

حدائق الذاكرة

□ الذاكرة ومتاهات التذكر جزء من اشتغالكم في العمل الروائي، هذه الذاكرة ليست ذاكرة الذات المفردة، إنها الذات الملغومة بالآخر، حمالة شتى صنوف المعرفة، أليس كذلك؟

- كانت سني متقدمة نسبياً، عندما كتبت روايتي الأولى وقبلها كتبت مجموعة من القصص، لكنني كنت قد قرأت الكثير من الروايات العربية والعالمية وتابعت الجدالات الأساسية حول الرواية وإمكاناتها التعبيرية، لذلك لم يكن من الممكن أن أكتب بطريقة تقليدية أو أن أشغل بالي بالنقاش العقيم حول «استيراد» الشكل الروائي إلى الأدب العربي وضرورة البحث عن شكل خاص بثقافتنا، بعيداً عن ذلك، كنت أعتبر الرواية جنساً أدبياً عالمياً يغتني بكل التجارب والتحققات النصية ويمدنا بإمكانات للكشف عن الذوات المغيبة ورفض اللغة الأحادية الآمرة، واعتناق النظرة التنسيبية بدلاً من الأحكام المطلقة، التخييل، في بعض تجلياته، تشكيك فيما هو قائم، ودعوة إلى إعادة النظر، ومحو للحدود المصطنعة بين الواقع والمحتمل، وأنا أنتمي إلى جيل له ذاكرة مثقلة محاط بتاريخ منسي ومحرمات كثيرة تخصي دفق الحياة، ولعل كل ذلك هو ما جعل روايتي «لعبة النسيان» و«الضوء الهارب» تأخذان منحى متشظياً رغم الحرص على تنظيم الفوضى الجميلة المنحدرة من مسارات الذاكرة وقفزاتها، وأعتقد مثل بعض الكتاب والنقاد أننا لا نستطيع أن «نحاكي» شيئاً أو عالماً أو شخصيات، ما يهم الروائي هو أن يكتب ذاكرته ومن ثم مواجهة متاهات التذكر والنسيان وزئبقية الزمن ومحدودية اللغة، وأظن أننا بهذا المفهوم لا نستطيع بعد أن نزعم تخصيص قيمة معينة لنص روائي نكتبه، ما أطمح إليه، وهو أقرب إلى بوطيقا الذاكرة، هو اعتبار جميع المواد الخام التي يوظفها الروائي مواداً متساوية يصعب التمييز في درجة أهميتها وهي تتضافر جميعها في التعبير عن رؤية ونسج فضاء وخلق شخوص وكلام، من هنا أهمية تذويب الكتابة الروائية، وأنا لا أقصد بالتذويب الاقتصار على استيحاء ذات الكاتب، بل ألح على حضورها متفاعلة مع ما يحيط بها ومع ما يشكل ذاكرتها المتشابكة والمتعددة : المعيش، والمحلوم به، والكامن في اللاوعي، والنصوص المقروءة، والمحكيات المسموعة، والصور المشاهدة، وأظن أنني حققت شيئاً من ذلك في روايتي «الضوء الهارب» التي أخذت مدى واسعاً من التخييل داخل فضاء طنجة المؤسطر، وداخل ذاكرة البطل العيشون الرسام، تتلاقى ذاكرات وفضاءات أخرى تمتح من مراكش وفاس وباريس، وتمتح من أسئلة الجنس والحب والإبداع والموت وهوس اللامرئي والمقدس، وتقترض من رواية فرنسية بعض ملامح إحدى شخصياتها لتجسد حالة نفسية عاشتها فاطمة في منفاها الباريسي، أظن أن هذه الإمكانات التي تقدمها الرواية هي التي أتاحت لمجموعة من الكتاب في المغرب وفي العالم العربي أن يبدعوا نصوصاً متمردة على اللغة المتخشبة وعلى التحليلات الرسمية الجوفاء التي تستهدف إبقاء المواطن العربي داخل سجن وصاية أبدية، لأجل ذلك أراهن مثل الكثيرين على أن تكون الرواية مدخلاً مضيئاً يسعفنا على قراءة ذاكرة الإنسان العربي وهمومه عبر متعة التخييل وإعادة تشكيل اللغة وتجديد المتخيل الاجتماعي.

النسيان

□ «امرأة النسيان»، «لعبة النسيان»، النسيان دلالة واضحة في العملين معاً، ترى ما الذي تتقصدونه؟

- هذا ناتج عن علاقتي بكتابة الذاكرة، أي فيما حاولته من أعمال روائية كنت أحاول أن أكتب ذاكرتي، هي كتابة تستدعي - أيضاً - التخييل، والتخييل بدوره يقوم على بياضات وفراغات، هذه البياضات يحدثها النسيان، محاولة القبض على الزمن كلها عناصر تندرج في كتابة النص الذي أسميه «كتابة الذاكرة»، وهذه الكتابة تختلف عن الكتابة الواقعية في أنها لا تتقصد استنساخ ما عشته أو ما عانيته أو ما اختزنته ذاكرتي، لكن كتابة الذاكرة هي مجال للتحوير، للإضافة، للبحث، التركيز على النسيان، يعني - أيضاً - أن له دوراً معيناً في الحياة، إذ لا يمكن أن نعيش بذاكرة ممتلئة كل الوقت، في واقع الأمر هناك النسيان الذي يسعفنا كي نحيا، كي نتحمل المواجع أو الملل، كل الذي عبرناه يوماً أن نتحمل الشعور بالعجز أمام قوة الزمن وسطوته، إذاً النسيان يمكن أن يحمل دلالات متعددة تحيل على اشتغال الذاكرة وتحيل على بعض الدلالات الفلسفية، فهناك فلاسفة اهتموا بالنسيان، بهذا المعنى النسيان هو وسيلة للتفكير فيما هو غائب، وهو - أيضاً - استحضار بعض ما نظنه انقضى، ولكنه يعود بشكل من الأشكال، وهو ملازم - أيضاً - لما تشتغل عليه الذاكرة، في النص الأول «لعبة النسيان»، وفي الثاني «امرأة النسيان» النسيان يصبح عنواناً يستدعي من القارئ أن يفكر فيما لم يقله النص - أيضاً - نحن حاولنا عملياً أن نزعم أننا نكتب ما قد عشناه بدقة، وقد ننسى الكثير من هذا السؤال، سؤال النسيان، أصر على النسيان لتأكيد دوره في الكتابة، أي لا نكتب الأشياء التي يمكن أن نقول إنها مؤكدة وثابتة، أو لا يمكن أن نزعم بأنه مؤكد، هذا النسيان نفسه هو الذي يساعد الكتابة الفنية، إذ يخرجنا من إطار الواقع الضيق، ويسمح للغة أن تتحرر من استعمالاتها المألوفة، إنه يتيح تخيل أشياء ربما لم تقع أو هي قريبة من الوقوع، مسألة النسيان - أيضاً - بالنسبة لي هي نوع من الإقرار بما عشته، وبما لم تتحمله ذاكرتي، فما عشته يفضي إلى أسئلة ترج أو تزحزح الذات، يقين الذات، أو انتساب الذات، النسيان في هذه الحال يصبح اللجوء إليه تميمة للذاكرة المهددة بالنسيان، استعادة المتمنع الذي يظل بمثابة جزيرة مضيئة، هذا المتمنع الذي يحرك الكتابة في أعماقنا.

دلالات ترميزية

□ جاء في إحدى محطات رواية «امرأة النسيان» ما يلي : «أقنعت السيد كريم بأن نفترق لأن أشياء كثيرة تحول دون المعيشة المتكاملة اليوم بيننا، خاصة بعد أن أصبحت نشازاً وسط عائلته الكبيرة التي كان مرتبطاً بها حد الذوبان» أليست العائلة الكبيرة المعنية هنا هي الحزب؟

- لم أتقصد أن أرمز إلى الحزب من خلال الشخصية «فاء، باء»، لماذا؟ لأن «فاء، باء» لها وجود مادي إلى جانب امتداداتها الترميزية التي يمكن أن تحملها «فاء، باء».

□ ألا يمكن أن تكون هذه الشخصية التي أشرتم إليها تنتمي إلى عالمين : عالم الواقع المحلوم به والذي كنا جميعاً نحلم به؟

- إنها تعني جيل المغرب الذي عاش انتقالات متسارعة، جيل أتيح له أن يتعرف على الثقافة الأجنبية الأوروبية شخصية «فاء، باء» لم تستطع أن تتكيف مع بيئة تقليدية موروثة عندما رحلت، أشياء كثيرة تغيرت فيها، ولم تستطع أن تعيش مع بيئة زوجها بإحدى مدن المغرب الجنوبية، لأن هناك شيئاً يخص الإقليم، يخص الثقافة، يخص تقييم الحياة، صيغة العيش، أشياء كلها تبدلت، وكلها ملتصقة بشخصيتها ومن ثم فهي تصطدم، عوالم مشتبكة، عالم الواقع، وعالم الحلم، والمقصود إبراز بعض الأسباب التي جعلتها تلجأ إلى العزلة والابتعاد عن الحياة العادية، أصبحت تحس أن هناك أشياء أقوى من إرادتها، وهذا جزء من مأساتها.

□ الروائي يقدم عناصر تقرأ الظواهر والأفكار، في روايتكم «امرأة النسيان» مرة أخرى نقرأ هذا الحوار، إن تجربة حكومة التناوب دخلت في قالب المخزن، أي قالب؟ وأي مخزن؟ ما تعقيبكم على السارد؟

- هذه فقرة تنطوي على السخرية وإدراجها على لسان إحدى الشخصيات هو مقصود لإبراز الأفكار والخطابات والاتجاهات داخل المجتمع الواحد، الروائي لا يمكنه أن يكون أحادي النظرة أو أحادي اللغة أو أحادي الفكر، بمعنى أن الرواية تقوم أساساً على إفساح المجال لنستشعر كقراء تعدد الرؤى، وتعدد اللغات من خلال الحوار والمونولوج، التعقيبات في هذه الفقرة يمكن للمحلل أن يلمس تعدد الخطابات القائمة داخل المجتمع، كما يمكنه أن يقرأ ربما وجودها من المعجم السياسي والثقافي والاجتماعي، في الفترة التي يحيل عليها النص، لذلك فإن هذا التصور للرواية القائم على تعدد اللغات وتعدد الأصوات وتجنب إصدار الأحكام الأخلاقية القاطعة، هذا التصور للرواية يستلزم ألاّ ننسب للروائي ما يرد على لسان السارد، لأن الروائي يقدم عناصر تقرأ الظواهر والأفكار دون أن يفرد وجهة نظر معينة.

مجتمعاتنا العربية لا تسمح

□ هل ترون ضرورة اتكاء الأديب على رافد حزبي في العالم العربي؟ أم أن ذلك يظل مجرد ضرورة للناشئ؟ ثم عند اتساع التجربة الأدبية يصبح هو ذاته خارج سلطة الحزب، إذ تصبح هذه السلطة الأدبية أكبر بالنسبة للخريطة الحزبية طبعاً؟

- أريد أن أميز بين ما يتحتم علينا أن نقوم به باعتبارنا مواطنين، أي أن نختار الطريق التي نسهم من خلالها في الفعل الاجتماعي السياسي، بهذا المعنى ليس هناك أحد منا معفي من هذا الدور، الكاتب أو المبدع يأخذ وضعاً اعتبارياً مختلفاً عندما يبدع، من حقه الانتماء السياسي، لكن المشكلة هي أن الشروط الموضوعية في مجتمعاتنا العربية لا تتوقف لتسمح بوجود ما يسمى في أوروبا بوجود الكاتب أو المبدع المستقل، طبعاً ذلك آيل للوضع المعقد المتشابك والمتدهور، والذي لا يتيح للكاتب أن يكون مستقلاً بهذا المعنى، ما معنى أن يكون الكاتب مستقلاً؟ أعني به الاستقلال الذاتي، نوع من الحرية التي يكتبها المبدع أو الفنان خلال إنتاجه، وذلك عندما يصبح بإمكانه أن يبيع نتاجه الأدبي أو الفني مباشرة إلى الجمهور، دو ن وساطة إلاّ وساطة الإبداع نفسه، عندئذ يمكن أن يكون مستقلاً ملاحظاً أو راصداً ما يحدث خارج كل التنظيمات، هناك تمييز تفرضه هذه الوضعية، فينبغي أن يكون العمل الإبداعي صادراً عن معنى أو مفهوم أوسع، ومع ذلك فعلاقة المبدع مع هذه العناصر : السلطة أو الحزب ليست دائماً سهلة أو سالكة، فالمبدع أساساً علاقته مع نفسه تكون موضوع سؤال، نقد ومراجعة علاقة ليست سهلة ولا سالكة، هناك منطقان لا يخلوان من تعارض : منطق الرجل السياسي الذي يكون مشدوداً إلى ما هو ظرفي وراهن، ويتطلب حلولاً عاجلة، ومنطق المبدع الذي يتباعد عمّا هو راهن باحثاً عن رؤية ما، إذاً كان من حق المبدع أن يكون خارج سلطة الدولة فمن حقه - أيضاً - أن يكون ملتزماً سياسياً دون أن يؤثر ذلك في فنه، هناك بعض المبدعين الكبار مثل «أراغون» ظل دائماً منتمياً للحزب الشيوعي الفرنسي، على الرغم من أنه يعلم بعض الأخطاء في سياسة الحزب، ذلك أنه كان يرى أن وجود هذا التشجيع من شأنه أن يحدث شيئاً «ما»، وقد ظل شعره بعيداً عن الشأن السياسي، هناك - أيضاً - ما يوحي به السؤال : ينبغي أن نتجنب أن المبدع يمتلك الحقيقة أكثر من السياسي أو المفكر، هذا ليس صحيحاً، في أحايين كثيرة نسمع أو نقرأ بعض البيانات تقول إن الإبداع بإمكانه أن يحل هذه المشاكل التي تعاني منها السياسة العربية، هذا غير صحيح، لأن تغيير الواقع وتحقيق التغيير باتجاه أفضل هي مسألة في غاية التعقيد، إذ لا يمكن أن تقتصر على كتابات أو نصوص يكتبها الكاتب، فالعلاقة الجدلية بين الإبداع والسياسة، بين الثقافة بصفة عامة والسياسة، يمكن أن تكون متوترة باستمرار ولكنها خصبة، وتتبادل التأثير والتوجيه، فالمبدع يستفيد من تحليل السياسي لمجتمعه، لكن على السياسي - أيضاً - أن يقترب من الإبداع بصفة عامة، أن يصغي إليه.

◁الروائي لا يمكنه أن يكون أحادي النظرة والرواية تقوم أساساً على إفساح المجال لتعدد الرؤى

في ذكرى رحيله:

بيرم التونسي .. غربة الانتماء وانتماء الغربة

سيدي محمد

□ مرت قبل أيام ذكرى وفاة الشاعر المصري التونسي الأصل محمود بيرم التونسي، الذي يعد أهم شاعر وزجال، شاعر ترك للموت راحته فقتله احتراق جحيم الكلمة،، وثائر ضرب عرض الحائط بالثوابت السياسية في عصره المظلم، فدفع الثمن من دمه وعمره، وتكالبت عليه المؤامرات، ولا غرابة في ذلك، فقد كانت الكلمة الإبداعية في ذلك الزمن سلاحاً يعطي ثماره إذا امتلكه من يحسن فنون قتاله مثل بيرم.

تمرد شاعرنا على كل شيء، على الشيخ الذي درسه لقساوته، وعلى الحياة وعلى الموت الذي قتل والده وعلى الفقر الذي أورثه إياه، وحينما وصل به التمرد إلى الخطوط الحمراء حيث الملك وحاشيته كان لابد من وضع حد للشاعر المتطاول على قدسيات المجتمع، فمورست ضده أكبر جريمة ترتكب في الوجود وهي النفي من غير منفى.

وصل بيرم إلى تونس وكان أول ما هم بمعرفته هو سبب طرده من مصر، ثم البحث عن أصوله التونسية، وبالفعل استطاع الوصول إلى أصوله وأهله، وفوجئ بهم يذكرون أول ما يذكرون أصله، وأنه «ولد الجارية» التي أهداها السلطان التركي لجدهم، فيتركهم بيرم وهو يشعر بأنه منفي إلى بلد غريب عنه.

لم تترك هذه الفترة - الأربع سنوات - التي قضاها في تونس إلاّ حسرة شديدة في نفسه، لكنه مع ذلك تمكن من إصدار ثلاث صحف ينتقد فيها الوضع السياسي للبلد التي كانت تتخبط في فساد هرب منه في مصر ليجده أينما حل.

تمكنت السلطات الاستعمارية من حظر جميع صحف بيرم اللاذعة والمليئة بلغة الساخرة التي لاقت رواجاً في البلاد العربية، ونلاحظ قوة بيرم في تمكنه تحت كل هذه الضغوط النفسية والسياسية من إقامة علاقات جيدة وتواصل أدبي وثقافي وإنساني قوي مع عدد من الأدباء والمثقفين في تلك المرحلة من حياة تونس، وخاصة أعضاء «جماعة تحت السور».

ينفى بيرم إلى فرنسا ليعمل حمالاً في الميناء لمدة سنتين، ثم يقوم بتزوير جواز سفر ليعود به إلى مصر، فيعود إلى شعره الزجلي الذي ينتقد فيه السلطة والاستعمار، ويقبض عليه مرة أخرى لتنفيه السلطات إلى فرنسا ويعمل هناك في شركة للصناعات الكيماوية، ولكنه يفصل من عمله بسبب مرض أصابه فيعيش حياة الضنك ويواجه أياماً قاسية ملؤها الجوع والتشرد.

ويتلقى بيرم عواصف الحياة منتصباً صلباً لا تزعزعه العواصف ولا تهتهنه الصروف يتنكر له الكثير من أصحاب الجرائد التي يراسلها فيعبر عن آلامه ويقول :

الأوله مصر، قالوا تونس ونفوني
والتانيه تونس، وفيها الأهل جحدوني
والتالته باريس، وفيها الكل نكروني.

ورغم قسوة ظروف الحياة على بيرم إلاّ أنه استمر في كتابة أزجاله وهو بعيد عن أرض وطنه، وفي عام ١٩٣٢م يتم ترحيل الشاعر من فرنسا إلى تونس، لأن السلطات الفرنسية قامت بطرد الأجانب، فأخذ بيرم ينتقل بين لبنان وسوريا، ولكن السلطات الفرنسية قررت إبعاده عن سوريا لتستريح من أزجاله الساخرة واللاذعة إلى إحدى الدول الأفريقية، ولكن القدر يعيد بيرم إلى مصر عندما كان في طريق الإبعاد لتقف الباخرة التي تقله بميناء «بور سعيد» فيقف بيرم باكياً حزيناً وهو يرى مدينة بور سعيد من بعيد ثم يساعده أحد الأشخاص في دخول مصر ليجد نفسه في أحضانها، بعدها قدم التماساً إلى القصر فيعفى عنه، وذلك بعد أن تربع الملك فاروق على عرش مصر.

لم يكن بيرم، الذي ظلت لعنة المطاردة السياسية وراءه يجد بداً من قول ما يزيد من معاناته التي رأى فيها متنفساً من كدر الواقع الذي تمر به بلده، بل بلاده العربية :

جرايب جرعت باشا لابسين النياشين
تلقاهم في الجزيرة قاعدين ومفرفشين
للبيه منهم تكريعه يسمعها اللي ف شبين
صدق من قال بلادنا دي بلاد المنفوخين

ساند بيرم كل حركات التحرر العربية والثورات الوطنية، ولعل موقفه كان واضحاً جداً عندما يعلم أن بعض رجال الصوفية يحرضون الناس على الانقضاض على «عمر لطفي» ودعوته التعاونية بزعم أنه من أنصار الحركة البلشفية، يقول بيرم تحت عنوان «عالم ومسلم ويتعارض في فعل الخير» :

لا في الجوامع رأيت مثلك ولا في الدير
عالم ومسلم وبتعارض في فعل الخير
مدام فضيلتك بتاكل «كستلتيه وطير»
يبقى الدريس والدرة والفجل للخرفان.

تجاذبت بيرم التونسي قصائد العشق والسياسة، فأتحف سيدة الغناء العربي أم كلثوم بأجمل ما غنته مثل رائعتها «هو صحيح الهوى غلاب»، و«الأولة في الغرام»، و«أنا وإنت»، وأغنية «غني لي شوي شوي»، بالإضافة إلى أغنية الحب الصوفي والعشق الرباني «القلب يعشق كل جميل».

كانت أمل كلثوم تقدر شاعرنا الراحل وتحترمه ولم تتردد في الغناء له، ولعل إذاعتها لخبر وفاته في الإذاعة المصرية ونعيها له على الهواء مباشرة أكبر دليل على عمق الصداقة والاحترام بين أسطورة الغناء وأسطورة القصيدة العامية.

ما بين مولده في الإسكندرية عام ١٨٩٣ وبين وفاته عام ١٩٦١م ترك بيرم منتجه الشعري، الذي أحيا القصيدة العامية بعد أن كانت قد اندثرت عبر عصورها الطويلة، ليستمر عبر تلامذته حداد وجاهين والأبنودي ونجم وعبر مقطوعته الفلسفية التي رأى فيها بيرم الحياة سمراً أدبياً عابراً ليس إلاّ :

قال : إيه مراد ابن آدم؟
قلت له : طقه.
قال : إيه يكفي منامه؟
قلت له : شقه.
قال : إيه يعجل بموته؟
قلت له : زقه.
قال : حد فيها مخلد؟
قلت له : لاه.
قال لي : ما دام ابن آدم بالصفات دي.
نويت أحفظ صفات ابن آدم كل ما اترقى.

رداً على نصيحة توماس فريدمان

نضال العرابيد #

□ لقد امتلأت الصحف الدولية والعربية بكتابات توماس فريدمان، هذا الرجل المجنون والملوع بالتنظير، وامتداد السياسة الخارجية لواشنطن، ولربما هذه مهمته.

في تطبيق نظرية عولمة المجتمعات العربية وأدلجتها بثقافة البوب وموسيقى الروك، يعتقد فريدمان أن هذه هي روح الديمقراطية المتسكعة في شوارع شيكاغو وأوهايو وغيرها من هذه الولايات التي تناسى فريدمان أن يتحدث عن انحلالها أخلاقياً وتفككها اجتماعياً، وبات الأمر مبهماً واختلط الحابل بالنابل ولم يعد أحد يدرك ماذا تريد واشنطن وماذا تهدف من خطط إصلاحات المجتمعات العربية؟ وهل يقصد بديمقراطية هذا النظام العالمي الجديد الهيمنة على العالم من خلال استعمال كلمات حق يراد بها باطل والدعوة إلى التحرر والليبرالية من خلال الترسانة العسكرية ونسخ أخرى من علاوي العراق وتصدير هذه النسخ إلى عواصم الدول العربية التي لا تتوافق ميولات أنظمتها مع الثوب الأمريكي المتغطرس وأهداف رجالات بوش؟ كلها تساؤلات لا تجد إجابات مسعفة للمواطن العربي الذي تداخلت عليه المصطلحات والمفاهيم الغربية وما يتخللها من ازدواجية المعايير القاتلة التي تنظر إلى الفكر الإنساني بأنه يحمل بعدين أو قطبين، ولكن كيف استطاعت واشنطن أن توهم وتضلل العقل العربي؟

حقيقة أن الفلسفة الإمبريالية اكتشفت الاختراقات والثغرات من خلال قلب الأيديولوجية العربية وبث السموم في الثقافة العربية من خلال نظرية العولمة الأمريكية، والمقصود هنا هو عولمة الثقافة الموجودة في البيئات العربية، نعم إنها عولمة لم يسبق لها مثيل في ظل هذا التقدم الهائل في التكنولوجيا والانفتاح الإعلامي العاهر، فأصبح كل بيت عربي يملك جهاز التقاط القمر الصناعي (الديجيتال) وما يبثه هذا الجهاز من برامج تسميم الفكر العربي وما تنفقه الولايات المتحدة الأمريكية من بلايين أو تريليونات من الدولارات على هذه الفضائيات، حتى أصبحت البيوت العربية لديها نماذج مختلفة من أبنائها المتمردين على الثقافة والعقيدة ومنظومة الأخلاق والمثل العليا نتيجة فساد أدمغتهم، فالولايات المتحدة تمتلك (٤٠٪) من الإعلام في العالم، علماً أن سكانها يقارب (٤٪) من إجمالي سكان العالم، وبالنسبة للإعلام العربي نلاحظ التراجع الذي يسجله هذا الإعلام الرديء ومواده المنحطة وما تقوم به من إهدار موجع ينتقص من إنسانيتنا، فبالأمس القريب كانت المسلسلات والأفلام العربية تحاكي الواقع وكانت نموذجاً تعليمياً لتعديل السلوكيات الخاطئة وتقويمها، كذلك علاج المشكلات والقضايا الاجتماعية والأخلاقية والسياسية في الوطن العربي، ولكن اليوم - للأسف - أصبحت هذه المسلسلات والأفلام تحاكي الواقع الغربي وانحرفت عن مهامها ومسؤولياتها، فبدلاً من أن تعالج المشكلات السالفة الذكر أصبحت هي بحاجة ماسة للعلاج أو حتى الاستئصال لأنها أصبحت مرضاً خبيثاً ومسرطناً.

كل هذه العوامل ساعدت على نجاح نظرية العلومة التي يدعو لها الليبراليون العرب من أزلام الغرب ومسوقي سياسة واشنطن أمثال الليبرالي شاكر النابلسي وغيره من أباطرة هذه الجوسنة لصالح أمريكا، وما يلفت النظر أن هذه العولمة ليست وليدة اللحظة، وإنما هي موجودة منذ أن تراجعنا عن قيمنا وأخلاقنا ومثلنا وسمحنا للغرب بنشر غسيله ومواده العفنة في بيئاتنا العربية، ولكن ما يستثير العقل ويشك به المنطق تلك المهاترات التي أطلقها السيد فريدمان وقدمها كنصيحة للمجتمعات العربية وأنظمتها المتأسركة - إن جاز لي التعبير في جمع المصطلحين معاً (الأمركة والأسرلة) - حيث يقول فريدمان : «إذا أراد العالم أن ينفتح، فعليه أن يتعلم من النموذج الأمريكي»، والعالم الذي يقصده فريدمان هو بالطبع العالم العربي، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه وبقوة الكلمات : هل نتعلم من أمريكا النمذجة اللاإنسانية ونفتح عقولنا ونسكب بها القيم والمعايير الزائفة وديمقراطية سجن أبو غريب وحرية جوانتانامو؟ ماذا نتعلم من هذا النموذج الذي يستخدم طائرات البنتيوم و(بي ٥٢) التي ألقت هدايا سانتاكلوس وألعاب عيد الميلاد القاتلة لأطفال العراق وأفغانستان وتقتيل مئات الآلاف منهم وإذا أعدنا عقارب الزمن للخلف ونقرأ اللاتاريخ الأمريكي وماهيته وكيفية استلاب حياة الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصلية التي سميت فيها بعد أمريكا لنقرأ جيداً ما فعله الأمريكان من حروب وإبادات جماعية امتهنت إنسانية الهنود الحمر في الحقبة الماضية، كما يفعل الآن النموذج الإسرائيلي بقتل الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين وما ينفذه الإسرائيليون من إبادات جماعية ومجازر ترتكب بحق الفلسطينيين وامتهان كرامتهم، وفي نهاية المطاف يخرج علينا المرتدون من ليبراليين كالنابلسي وأصدقائه من المتآمرين وما يسعون إليه من بث سموم العولمة الكاذبة التي تريدنا أن نصل إلى مرحلة النكوص لمراحل عصور الظلام والاستبداد والجاهلية التي عاشتها أوروبا القديمة.

كاتب وناشط فلسطيني